الشبهة الثانية عشرة
البخارى ومسلم لم يسلما من النقد

فى كثير من العلوم الإسلامية والعربية، قمم شامخة، احتلت تلك القمم مكان الصدارة فى مجالاتهم، ففى علوم العربية، يشار إلى سيبويه بالبنان، وفى علوم النقد الأدبى ترى الآمدى صاحب الموازنة، والقاضى الجرجانى صاحب الوساطة منارتين سامقتين، وفى علوم القرآن والإعجاز تجد الإمامين القاضى أبا بكر الباقلانى، وعبد القاهر الجرجانى فارسين لا يشق لهما غبار، وفى علوم أصول الفقه تجد الإمام الغزالى صاحب المستصفى، والآمدى صاحب الإحكام فى أصول الأحكام بحرين زاخرين.

أما فى علوم الحديث فقد سطع فى سمائها الإمام البخارى، والإمام مسلم رضى الله عنهما، وصار لكتابيهما منزلة لا تضارع فى هذا المجال.

وهذه القمم الشامخة، والأئمة الأعلام صاروا «حجة» فى تخصصاتهم، ورموزًا فى تاريخ الحركة العلمية الإسلامية، وخصوم الإسلام المعاصرون، يصوبون سهامهم دائما نحو هذه القمم، وتلك الرموز، لأن فى النيل منهم نيلا من المعارف التى برزوا فيها، إنهم أصحاب «العروش» التى تحمى حمى الدين. فكان إسقاطهم عند خصوم الإسلام، وعملاء خصوم الإسلام مطلبا «استراتيجيا» يسعون لتحقيقه بكل ما أوتوا من دهاء ومكر وخديعة.

وجريا على هذا «المنهج» ترى منكرى السنة يتخذون منهما غرضا لقذائفهم، لأنهم يعلمون أن الأمة شديدة التقدير لهما عظيمة الثقة فى صحيحيهما، فإذا نجحوا فى العصف بهما أصابوا السنة والأمة معًا فى مقتل يصعب بعده استمرار الحياة، فقد جعلوا من أسبابهم (شبهاتهم) لإنكار السنة الطعن فيهما، وفى عملهما، لتنهار بعد ذلك صروح السنة فى غيرهما من الكتب والمصنفات الأخرى.

هذا هو السر فى التركيز على صحيحى البخارى ومسلم فى هذه الآونة.

وعلى عادتهم من التهافت فى تصيد المعايب والمآخذ، تراهم يرددون كثيراً أن صحيحى البخارى ومسلم لم يسلما من نقد علماء الحديث، الذين جاءوا بعدهما، كالحاكم والبيهقى، والدارقطنى وابن الجوزى، وغيرهم.

ثم اتخذوا من نقد العلماء لهما وليجة، لنزع الثقة عنهما وإخضاعهما لغربلة، بغربال واسع «الثقوب» ليسقط كل أوجل ما فيهما من الأحاديث الصحاح (ينظر جريدة الجيل التى تطبع فى قبرص وتوزع فى مصر [مارس ١٩٩٩م].

إنهم يدعون أن فى صحيحى البخارى ومسلم مما عدوه صحيحًا من الأحاديث:

ما يخالف القرآن، وما يخالف العقل، وما يخالف الواقع المحسوس وما يقدح فى عدالة الله، وما يوافق مكايد اليهود للإسلام؟! وما يوافق هوى النصارى، وما هو خرافة خالصة؟!

تفنيد هذه الشبهة ونقضها:

ونعتمد فى تفنيد هذه الشبهة - بعد الاعتماد على الله - على ما يأتى:

أولا: إن صحيحى البخارى ومسلم كتب الله لهما الذيوع، وقد تلقتهما الأمة بالرضا والقبول، وأجمعت على اعتمادهما بعد كتاب الله فى العمل للدنيا والآخرة. والأمة لا تجتمع على ضلالة، كما جاء فى الحديث الشريف فى طرق متعددة.

ثانيا: أن حركة النقد التى دارت حول ما فى البخارى ومسلم من أحاديث، أسفرت عن ملاحظات شملت مائتى حديث وعشرة أحاديث من أكثر من أربعة آلاف حديث اتفقا عليها، تفصيلها الآتى:

- ثمانية وسبعون حديثا فى صحيح البخارى.

● مائة واثنان وثلاثون حديثا فى صحيح مسلم.

وهذه الأحاديث التى انتقدت فى الصحيحين لم يكن نقدها موضع إجماع عند المحدثين ، وليس فيها أحاديث موضوعة، وقد أعلن بعض النقاد من علماء الحديث أن هذا النقد بنى على قواعد أو علل ضعيفة غير قادحة فى سلامة الحديث كما أن الأحاديث التى انتقدت عند البخارى ليس لها مساس بأصل الكتاب ، بل هى من الأحاديث التى ذكرها البخارى على سبيل الاستئناس [ينظر مقدمة ابن حجر لشرح البخارى ، فتح البارى (٣٤٦) .

وأيا كان الأمر فإن نقد علماء الحديث لبعض ما في البخارى ومسلم ليس فيه لمنكرى السنة حجة ، بل هو حجة عليهم ، حيث لم ينظر المحدثون إلي هذين الإمامين الجليلين نظرة تقديس ترفعهما إلى درجة العصمة من الخطأ والسهو ، وإنما كملوا بنقدهم لبعض ما في الصحيحين الاتقان الذى يبث فى النفوس الاطمئنان إلي سلامة السنة المعتمدة لدى الأمة من التزوير والخلل ، وهذا ما يريده منكرو السنة من شغبهم وصياحهم الآن .

ثالثا : إن بعض هذه الأحاديث التى انتقدت عند البخارى ومسلم كان مرجع النقد فيها إلى عدم التزام شروطهما التى التزماها فى الرواية . وهذا لا يعنى أن هذه الأحاديث ضعيفة أو مكذوبة ، ولم يقل بذلك أحد من علماء الحديث الخبراء بأصول الرواية متنا وسنداً ، بل قال بعض هؤلاء النقاد إن ما أخذ على الإمامين معتمد عند الحفاظ وارد من جهات أخرى .

ومنكرو السنة المعاصرون لا يعلمون من أصول هذا الفن إلا صوراً شائهة ، ولو أنهم أطلعوا علي بعض أمهات كتب الحديث ، مثل « توضيح الأفكار » لظهرت لهم قماءة أنفسهم ، وجهلهم بفنون السباحة والغوص فى هذا الخضم العميق ، الذى لا شواطئ له . ولكن علوم الدين – الآن – أصبحت كلأً مباحا لكل « من فك الخط » من الأميين الجهلة الذين يتركون ما يعرفون ، ويهرفون بما لا يعرفون ويدعون أنهم « تنويريون » مجددون .

رابعًا : أننا نحيلهم ليعرفوا لأنفسهم قدرها فى مجال الحديث وعلومه ، إلى الفصل الضافى الذي عقده العلامة ابن حجر العسقلانى ، في دراسة عشرة أحاديث ومائة من الأحاديث التى انتقدت عند البخارى ، ومشاركة مسلم في تخريج اثنين وثلاثين حديثا منها ، ناقشها ودرسها حديثا حديثا ، مستعملا فى دراسته إياها قواعد نقد الحديث التى لا يعرف منكرو السنة عنها شيئا.

إننا ندعوهم – ليرحموا أنفسهم بالسكوت – إلي الإطلاع على هذا الفصل ليبين لهم أنهم محرومون تماما من أدوات السير فى هذا الطريق ، وإلا فعليهم أن يقدموا للأمة نقداً علميا دقيقا لما يرونه موضوعا للغربلة عند الإمامين البخارى ومسلم . أما هذا التهريج الذى دأبوا على نشره فهو بضاعة المهزومين .

* * *